عاش مجاهدا ومات مظلوما

قتيبة بن مسلم

obeikandl.com

obeikandl.com

قتيبة بن مسلم

بطلنا هذا من نوعية عجيبة من الرجال ، عاش للجهاد وحب دينه، وكتب لنفسه تاريخًا مجيدًا ، وقبل أن يكتب لنفسه هذا المجد العريض الذى سجله له التاريخ كبطل واجه الأخطار وصمد لها ، وسبح فى بحارها ، وحقق ما كان يصبو إليه من انطلاق الإسلام ليشمل شعوبًا بعيدة عن مركز الخلافة فى دمشق ، وينشر بين ربوع الوثنية دين الإسلام ، فهو لا يبغى مجدًا لنفسه ، ولكنه يبغى مجداً لعقيدته.

يوم أبى إلا أن ترفع راية التوحيد على هذه البلاد النائية فى جنوب الاتحاد السوفييتى، ويضم إلى رقعة الإسلام بلادًا مثل سمرقند وبخارى ونيسابور وغيرها من هذه البلاد رغم بعد المسافة ووعورة الطرق. بل إن طموحه حدا به إلى التطلع لغزو الصين ورفع راية التوحيد تحت سمائها.

وكان يتحقق له ذلك لولا ما ألم به فى أخريات عمره من ظروف سياسية قاسية ، فتعرَّضَ لمحنة فادحة راح ضحيتها ، ولم يتحقق أمله هذا العظيم.

obeikandl.com

إن هذا البطل الذى فتح هذه البلدان التى خرج منها فيما بعد علماء من ألمع علماء المسلمين فكرًا واجتهادًا وتصوفًا هو قتيبة بن مسلم الباهلى، وباهلة التى ينتسب إليها هذا القائد الفذ من قبيلة مغمورة من القبائل العربية لم يكن لها ذكر ، فلم يبرز منها من تفتخر به هذه القبيلة بين القبائل الأخرى ، ولم يبرز منها إلا هذا الفارس ووالده مسلم بن عمرو الذى كان شجاعًا مقدامًا. وما أكثر ما هجا الشعراء فى الجاهلية هذه القبيلة باعتبارها لم تُخرج أبطالا فى حومة القتال ، أو شعراء ذاع صيتهم بين الناس.

ولولا أن الإسلام قد نهى عن التفاخر الكاذب ، وحض على أن يتحلى المسلم بقيم الإسلام التى لا ترى فضلاً بين إنسان وآخر، مهما كان جنسه إلا بالتقوى؛ لولا ذلك لظلت هذه القبيلة بعد الإسلام تبكى جراحها التى سببتها أوهام الجاهلية.

وقد شب قتيبة بين قبيلته ، ورأى والده يعشق الفروسية ، ويُجيد ركوب الخيل ، فقلد الصبى والده ، وتعلم الفروسية وفنون القتال ، وكأن القدر كان يدخره ليوم يحقق فيه للإسلام انتصارات خالدة على الزمان ، انتصارات يمتد تأثيرها أجيالاً وأجيالاً . ويشب الفتى جريئًا مقدامًا جسورًا ، محبا لخوض أعتى المعارك.

وهذه الشجاعة قربته من الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد هال

هذا الشاب أن يرى فرق الخوارج تؤرق الناس ، ويحاولون فرض أفكارهم على المجتمع الإسلامى كله ، ولم ترقْه هذه الأفكار ، ولم تستهوه هذه الجرأة التى اشتهروا بها ، كما أنه استاء من تصرفاتهم الحمقاء فى محاولاتهم فرض آرائهم بالقوة لا بالاقتناع.

والخوارج هم هؤلاء الفئة من الناس الذين ضغطوا على الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن يقبل التحكيم فى معركة صفين بينه وبين معاوية عندما أوشك الإمام على أن ينتصر على جيش الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان .. يومها عرض عمرو بن العاص وقد -رأى الهزيمة قاب قوسين أو أدنى - على معاوية أن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح طلبًا لتحكيم كتاب الله.

يومها أيقن الإمام على أن الأمر كله خدعة ، وأن معاوية يريد أن يحصل على فرصة من الوقت للاستعداد لجولة جديدة ، ولكن فريقًا من جنوده أصر على التحكيم - تحكيم كتاب الله - وأذعن الإمام لهذا الرأى وهو غير مقتنع به.

واختار معاوية عمرو بن العاص ليمثله فى التحكيم ، واختير موسى الأشعرى ليمثل الإمام عليا ، واستطاع عمرو أن يخدع أبا موسى الأشعرى ، ويقنعه بضرورة خلع كل من على ومعاوية،

وأن يختار المسلمين خليفة جديدًا ، حتى تنطفئ نيران الفتن.

وجاء وقت إعلان النتيجة ، ولم يستمع أبو موسى الأشعرى لمن أشار عليه أن يعلن رأيه بعد عمرو،وأعلن خلعه للإمام ، بينما أعلن عمرو بن العاص تثبيته لمعاوية. وما كاد ينتهى الأمر على هذا الحد حتى اعترض هؤلاء الذين فرضوا التحكيم على الإمام ، وقالوا إنه ما كان ينبغى أن يتوقف عن القتال ، وندموا على التحكيم ، ثم قرروا أن يقيموا دولة دينية ، الحكم فيها لله وحده، وحاول الإمام على إقناعهم بالعودة إلى صفوف جيشه ، وأرسل إليهم عبدالله بن عباس لإقناعهم ، ثم ذهب هو بنفسه إلى «حروراء» لإقناعهم ، فاقتنع البعض وأصر البعض على رأيه.

وبعد التحكيم أصر هؤلاء الخوارج على أن يكوِّنوا دولة ينفذ فيها حكم الله ، حيث استطاع الإمام على أن يلحق بهم هزيمة عند «النهروان» ، وقد كانوا فى حروبهم فى غاية الجرأة والشجاعة وكانوا يهتفون «الجنة . . الجنة». وظل الخوارج يهددون الدولة الإسلامية حتى بعد استشهاد الإمام على - رضى الله عنه - على يد واحد منهم هو عبدالرحمن بن ملجم عندما طعنه وهو ذاهب لصلاة الصبح بسيف مسموم .

وكان الخوارج قد أعدوا خطة لقتل كل من على ومعاوية

وعمرو بن العاص، ولم تنجح مؤامراتهم إلا فى قتل الإمام.

دعوة الخوارج هذه لم ترُقْ لقتيبة بن مسلم ، ورأى فى حركتهم إعاقة للفتح الإسلامى ، وتفريقًا لكلمة الإسلام. ومن هنا حث الحجاج بن يوسف الثقفى على التصدى لهم والتخلص منهم. واستطاع الرجل أن يقنع الخليفة أن يخرج بنفسه لقتالهم.

وكان قائدهم «شبيب» جريئًا للغاية ، ولكن الحجاج استطاع إنزال الهزيمة بهم. وفى الوقت نفسه لفتت أنظاره شجاعة قتيبة بن مسلم وحرصه على الموت واستبساله فى المواجهة حتى رجحت المعركة لصالح الحجاج ، وقرر أن يكون قتيبة من المقربين إليه ، يدخره للأيام العصيبة.

ودانت للبطل الفرصة عندما أوعز الحجاج إلى الخليفة عبدالملك بن مروان أن يولى إمارة خراسان قتيبة بن مسلم بدلاً من يزيد بن المهلب. وهناك اتبع قتيبة سياسة جديدة تختلف عن سياسة سلفه الذى كان يعتمد كلية على العرب دون الفرس؛ مما أوغر صدور الفرس الذين يرون أن يزيد فى تفرقته بين الفرس والعرب يبتعد عن روح الإسلام؛ لأن الإسلام لا يحبذ العنصرية ، ولكنه ينبذها ويحاربها ، بل ويحرمها ، فليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، هكذا قال رسول الله ﷺ ، فما بال اليزيد بن المهلب

لا يعتمد عليهم ، ولا يشاورهم فى أمر ، بل ويخالف سنة المصطفى عندما يفرق بين العرب وغيرهم!

ومن هنا فقد استقبلوا قتيبة عندما علموا منه نية الاستعانة بهم فى أمور الحكم والحرب استقبالاً حسنًا، ولم يضيع قتيبة فرصة ، ولا سمح لنفسه بأن يضيع وقتًا، فأمله أن يمتد الإسلام ، ويشمل أراضى جديدة ، ينشر فيها نور الله ، وينشر الوحدانية فى بقاع ما تزال تعيش تحت أوهام الوثنية وضلال الشرك.

إنه يتخذ جنوده من المسلمين فرسًا وعربًا مكتسحًا أراضى ما كانت تخطر على بال أحد من المسلمين ، فيضم أرمينية وبخارى والتركستان، وإذا بأمراء هذه البلاد وهم يرون هذه الانتصارات يشعرون بأنهم لا حيلة لهم أمام قوة المسلمين الضارية إلا بالاستسلام.

وقد أساء الحجاج متصوراً أن الهدف الذى أرسل إليه قتيبة هو نشر الإسلام ، وليس مجرد اكتساح أراضٍ والاستيلاء عليها وأخذ الجزية. وهذا المعنى لا يخفى عن قتيبة ، ولكنه كان يعيش أرض المعركة نفسها، ويعرف أنه فى حاجة إلى اكتساب الوقت ليعرف أرض المعركة جيدًا ويعرف دروبها ، ومن ثم يرسم الخطة للمعركة الفاصلة التى يستطيع من خلالها أن يقهر أعداءه ، ويحقق النصر

الطريق المؤدى إلى هذا الهدف الكبير ، فلم يكن الاستسلام إذعانًا للإسلام، ولكن محاولة من هؤلاء الأعداء أن يكسبوا الوقت ويعرفوا عن قرب مدى قوة المسلمين.

وقد حدث بالفعل أن تجمع ملوك ورؤساء هذه البلاد ، وحاولوا ضرب قوات المسلمين ، ولكن قتيبة قاومهم ببسالة منقطعة النظير ، ثم عبر النهر الذين كانوا يتصورن أن يحول دون تقدم المسلمين ، وواصل زحفه نحو بخارى، وحرص أن يكون كالصقر لا يغفل عما يحيط به من مكائد الأعداء ، ويتصدى لهم ببسالة وشجاعة لا تعرف الخوف ولا التردد ، موقنًا أن الله معهم، وأن النصر من عند الله ، وأنه مهما تحالف أعداء الله ، فإن الله على نصر المسلمين لقدير، فهو لم يذهب إلى ميدان الجهاد إلا ابتغاء رضوان ربه ، ولم يذهب بحثًا عن شهره أو مجد، وإنما ذهب لينشر نور الله ، ولو كره المشركون.

وكان يدرك أن «نيزك» حاكم «ياذغيس» يكيد للإسلام رغم ادعائه أنه دخل الإسلام ، ولكنه كان يتظاهر بذلك؛ ليعرف قوة المسلمين عن قرب ، ويتابع أخبارهم ويتلمس أماكن الضعف فى صفوف المسلمين، واتضحت نواياه عندما خرج يجمع الحكام، والملوك من حوله ، ويبث فى أعماقهم كراهية المسلمين ،

وحضهم على حربهم.

وكان نيزك قد تحصن فى مكان يصعب الوصول إليه فى هذه الأماكن الموحشة الدروب والمسالك ، ولكن قتيبة استطاع أن يجند عددًا من مسلمى نيسابور، واقتحم مكان هذا الحاقد على الإسلام، وألحق به هزيمة ماحقة رغم سقوط مئات الشهداء.

وتابع زحفه حتى خوارزم ، ثم زحف نحو سمرقند، فحاصرها وضرب أسوارها بالمنجنيق ، حتى سقطت هى الأخرى تحت أقدام المجاهدين ، فدخلها قتيبة بن مسلم وبنى بها مسجدًا، وشعر الجميع أن الحصون لا تجدى أمام الإصرار على نشر مبادئ الحق وقيم الخير والجمال.

وظل قتيبة يؤدى واجبه فى ميدان القتال كمجاهد لا يبغى إلا وجه الله ، وفى نفس الوقت كان يوقن تمامًا أن الإسلام ليس مجرد انضمام الأرض لتستظل برايته ، ولكن حتى يصبح لهذه الفتوحات معنى لا بد من نشر الإسلام ، فبنى المساجد ، واصطحب من العلماء من يشرح للناس الدين الجديد وما يحمل من قيم ومبادئ قادرة على أن ترسم السعادة للبشر فى دنياهم وأخراهم.

وإذا كان الناس فى هذه الأماكن يعتقدون فى الأوثان فيعبدونها

من دون الله ، وبعضهم الآخر كان متأثرًا بالفرس قبل دخلوهم الإسلام فعبدوا النار ، فكان عليه أن يثبت لهم أن هذه الأصنام وهذه النار لا تنفع ولا تضر، فكان يحرق بنفسه الأصنام ويحطمها أمام الناس ، ويطفئ هذه النيران المقدسة وهو يقول لهم:

إن كانت هذه آلهة فيمكنها أن تضره ما دام قد دمرها أمامهم.

ولم يحدث له أى ضرر، ومن ثم فهى أحجار صماء بكماء لا تنفع ولا تضر، وأن هذه النيران التى يوقدونها بأيديهم لا تنفع هى الأخرى ولا تضر؛ بدليل أنه أطفأ نيرانها المتأججة وها هو بينهم معافًى لم يحدث له ضررا.

وهكذا بدأ الناس يدخلون فى دين الله. ولم يكن الدخول فى الإسلام بالأمر الهين واليسير ، ولكن بدأ الإسلام ينتشر ببطء ، وكان الدافع وراء انتشاره ما فى الدين نفسه من قيم ترغم معتنقه على التمسك به ، كما رأى الناس فى هؤلاء المجاهدين قدوة حسنة فى السلوك والأخلاق والتعامل ، ومن هنا انتشر الإسلام فى هذه البقاع التى ظهر من أهلها من كانوا أعلام الفكر الإسلامى، والذين تركوا بصمات لا تُنسَى فى تاريخ الإسلام.

ولا يستطيع أى مؤرخ أن ينسى أن وراء هذه الفتوحات الحجاج

بن يوسف الثقفى نفسه ، وما قدمه للفاتح العظيم من معونات ومدد ورسم خطط. إلا أنه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد بن عبدالملك، شعر الفاتح الكبير أنه لن يكون على وفاق مع الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك ، رغم السنوات الثمانية التى قضاها لم يهدأ له جفن ولا غمضت له عين وهو يقود جيوش الإسلام فى ظروف مناخية ، وجغرافية بالغة القسوة والضراوة.

كان قتيبة يعد العدة لاقتحام أرض الصين نفسها ونشر الإسلام بين ربوعها ، بل إنه أرسل إلى ملكها ينذره بأنه سوف يقتحم بلاده لو لم يدخل فى الإسلام أو يدفع الجزية وهو صاغر ، فعل ذلك القائد الشجاع بإيمان المؤمن العميق، رغم أنه يعلم تمامًا أنه لا يعرف ظروفه مع الخليفة الجديد ، وهل سيتركه يواصل زحفه الساحق وينشر نور الإسلام فى أماكن ما كانت تخطر ببال أحد ، ويتناسى تصفية الحسابات فى هذه الظروف الصعبة؛ لأنه يعلم أنه كان يحقد عليه؛ لأنه كان شديد الولاء للوليد بن عبدالملك ، ورغم أن الخليفة الجديد هو أخو الخليفة الراحل ، فإنه لم يكن صافى الصدر لقتيبة وآخرين من كبار الفاتحين العظام فى عهد بنى أمية ، أو بالأخص فى عهد أخيه الوليد.

وحدث ما توقَّعَه قتيبة بن مسلم ، فقد أمر الخليفة بعزله وهو

فى أوج انتصاراته ، وعودته إلى دمشق ، فخيمت سحابات من الحزن والأسى على عين البطل الجسور ، وأخذ يدبر الأمر ويدرس مستقبله. إن الحزن يعتصر قلبه ، فهو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق انتصارات رائعة ، وها هو قد وجد أن طموحاته قد انتهت وأن الخليفة يستدعيه لدمشق.. لن يقدم له أكاليل الغار.. ولن يقدم له شكره على جهاده فى سبيل الإسلام ، ولكنه سيزج به فى أعماق السجون.

وارتسمت علامات استفهام كثيرة فى رأس الفتى: هل يمكن أن يكون هذا جزاءه؟

وهل يمكن أن يكافأ بعد هذا الجهاد الطويل بأن يكون سجينًا فى حجرة مظلمة فى قاع أحد السجون؟

وهل يجدى دفاعه أمام الخليفة؟ وأى دفاع؟ وعن أى جريمة؟ إنه لم يرتكب جريمة ، ولكنه حقق انتصارات ورفع رايات الإسلام فى أماكن تبعد آلاف الأميال عن دمشق. ها هو الآن مطلوب لأن يكون رهين حجرة مظلمة ، وهو الذى كان يصول ويجول فى بقاع شاسعة تمتد امتدادًا رهيبًا فى القارة الآسيوية.

وقرر أن يقاوم هذا القرار الظالم مهما تكن العواقب ، وليمت فى ميدان جهاده بدل أن يموت حبيسًا تحت قبو مظلم رطب.

وانتهت حياته وهو يقاوم من جاء يقدمه للخليفة ، فقد أصابه سهم طائش أودى بحياة البطل العظيم.

واستشهد مسلم بن قتيبة ، وظل ما قدمه لنا مضرب المثل فى كل العصور . . إنسان عاش مجاهدًا بالله وفى سبيل الله، ونشر نور الله فى هذه الأصقاع البعيدة التى عرفت التوحيد على يد هذا البطل الذى عاش مجاهدًا ، ومات مظلومًا، واحتسب أجره على الله.

***

obeikandl.com